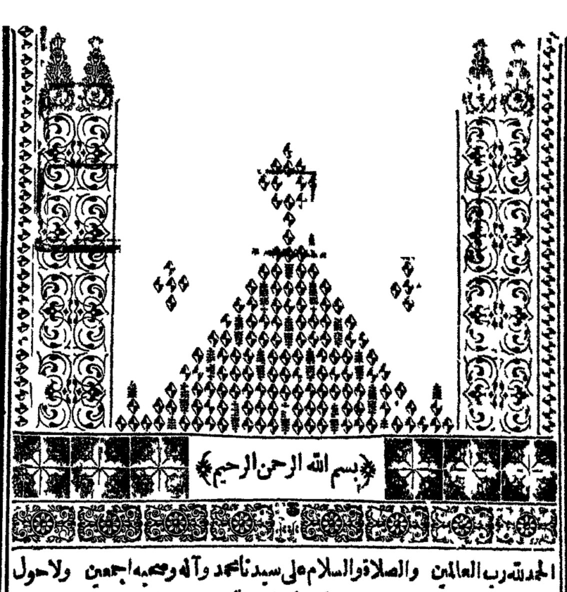
شرح ابن علان على قصيدة أبي مدين
التى أولها ما لذة العيش الا صحبة
الفقرا رحم الله الجميع
ونفعنا بهم
آمين



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ﴿اما بعد﴾ فقد قال صلى الله عليه وسلم يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل فاذا علمت ذلك أيها الاخ الشفيق فلا تخالل الا من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله وذلك هو الفقير المتجرد عن السوى المقبل على المولى فليست اللذة الا فى مخالته ولا السعادة الا فى خدمته ومصاحبته فلذا قال الشيخ العارف الوارث المتمكن أبو مدين رضى الله عنه

﴿ما لذة العيش الا صحبة الفقرا * هم السلاطين والسادات والأمرا﴾

أى ما لذة عيش السالك فى طريقه الى مولاه الا صحبة الفقراء والفقراء جمع فقير هو المتجرد عن العلائق المعرض عن العوائق الذى لم يبق له قبلة ولا مقصد الا الله تعالى وقد أعرض عن كل شئ سواه وتحقق بحقيقة لا اله الا الله محمد رسول الله فشد هذا بمصاحبته يذيقك لذة الطريق وتمر يق فى صميم فؤادك من شراب القوم أهنى

رحيق

رحيق ويعرفك الطريق ويقطع بك العقاب ويزيل عن قلبك التعويق وينهضك بهمته ويرفعك الى أعلا الدرجات ومن كان كذلك فهو السلطان على الحقيقة والسيد عند أهل الطريقة والامير عند أهل البصيرة فلا تخالف أيها السالك طريقه واجتهد أيها السالك المجد فى تحصيل هذا الرفيق واصحبه وتأدب فى مجالسته كما يزيل عنك ببركته صحبته كل تعويق كما قال رضى الله تعالى عنه

﴿فاصحبهم وتأدب فى مجالسهم * وخل حظك مهما قدموك ورا﴾

أى اصحب الفقراء وتأدب معهم فى مجالستهم فان الصحبة شبح والادب روحها فاذا جمعت بين الشبح والروح حزت فائدة الصحبة والا كانت صحبتك ميتة فاى فائدة ترجوها من الميت ومن أهم آداب الصحبة هوان تخلع حظوظك وراءك ولا تكن همتك منصرفة الا لامتثال أوامرهم فعند ذلك تشكر مساعيك فاذا تخلقت بذلك فبادر واستغنم الحضور وأخلص فى ذلك ترتفع درجتك وتعلو همتك عن الحور والقصور كما قال رضى الله تعالى عنه

﴿واستغنم الوقت واحضر دائما معهم * واعلم بان الرضا يختص من حضرا﴾

أى واستغنم وقت صحبة الفقراء واحضر دائما معهم بقلبك وقالبك تسرى اليك مؤادهم وتغمرك فوائدهم وينصلح ظاهرك بالتأدب بآدابهم ويشرق باطنك بالتحلى بأنوارهم فان من جالس جانس فان جلست مع المحزون حزنت وان جلست مع المسرور سررت وان جلست مع الغافلين سرت اليك الغفلة وان جلست مع الذاكرين انتبهت من غفلتك وسرت اليك اليقظة فانهم القوم لا يشقى جليسهم فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم وما أحسن ما قيل شعرا

لى سادة من عزهم * أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلى * فى حبهم عز وجاه

واعلم بان هذا الرضا وهذا المقام يختص بمن حضر معهم بالتأدب والانكسار والخروج عن نفسه والتحلى بالذلة والافتقار فاخرج عنك اذ حضرت بين أيديهم وانطرح وانكسر اذا ملت نباديهم فعند ذلك تذوق لذة الحضور واستعن على ذلك بملازمة الصمت تشرق عليك أنوار الفرح ويغمرك السرور كما قال رضى الله تعالى عنه

﴿ولازم الصمت الا ان سئلت فقل * لا علم عندى وكن بالجهل مستترا﴾

الصمت اصل الطريق وأساسه ومن لازمه ارتفع بنيانه وتم فراسه وهو نوعان صمت باللسان وصمت بالجنان وكلاهما لا بد منهما فى الطريق فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة ومن صمت لسانه ونطق قلبه خف وزره ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلى له سره وكلمه ربه وهذا غاية الصمت وكلام الشيخ قابل لذلك كله فالزم الصمت أيها السالك الا ان سئلت فان سئلت فارجع الى أصلك وطنك وقل لا علم عندى واستتر بالجهل تشرق عليك أنوار العلوم اللدنى فانك مهما اعترفت بجهلك ورجعت الى أصلك لاحت لك معرفة نفسك فاذا اعترفتها عرفت ربك كما ورد فى الحديث من عرف نفسه عرف ربه وكل ذلك من فوائد الصمت ولزوم آدابه فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه وما أحسن ما قيل

لا أبرح الباب حتى تصلحوا عوجى * وتقبلونى على عيبى ونقصانى

فان رضيتم فيا عزى ويا شرفى * وان أبيتم فمن أرجو لعصيانى

فانهض أيها الاخ الى باب مولاك بهمة علية وتحقق بأوصاف عبوديتك تشرق عليك أوصافه السنية كما أشار الى ذلك الشيخ رضى الله تعالى عنه

﴿ولا ترى العيب الا فيك معتقدا * عيبا بدا بينا لكنه استترا﴾

أى تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلتك فاذا تحققت بأوصافك وشهدت نفسك هذا الشهود رأيت نفسك كلها عيوبا لكنها مستترة فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك كما قال فى الحكم سبحان من ستر سر الخصوصية فى ظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية فى اظهار العبودية وافهم من هنا سر معنى قوله تعالى سبحان الذى اسرى بعبده ولم يقل برسوله ولا بنبيه اشارة الى أن هذا المعنى الرفيع لا ينال الا من طريق العبودية ولذلك قيل لا تدعنى الا بيا عبدها فانه أشرف أسمائى فانكسر أيها الاخ وانطرح فى الطريق ولا ترى لك حالا ولا مقاما يزل عنك كل تعويق واستغفر من كل خطرة تخطر بقلبك تنافى عبوديتك وقم على قدم الاعتراف وانصف من نفسك تبلغ درجة المنازل وتفنى بشريتك كما قال رضى الله تعالى عنه

(وحط)

(وحط رأسك واستغفر بلا سبب * وقم على قدم الانصاف معتذرا)

أى تواضع وانكسر وحط أشرف ما عندك وهو رأسك فى أخفض ما يكون وهو الارض لتحوز مقام القرب كما ورد فى أقرب ما يكون العبد الى الله تعالى وهو ساجد لان قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته واشهد نفسك دائما مذنبا وان لم يظهر عليك سبب الذنوب فان العبد لا يخلو من تقصير وقم على قدم الانصاف معتذرا من ذنوبك خجلا من سيآتك وعيوبك فان من عامل صاحبه المخلوق هذه المعاملة أحبه ولم يشهد له ذنبا وكانت مساويه عنده محاسن فكيف اذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقى الذى اذا حققت ليس لك صاحب سواه كما ورد فى الحديث اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الاهل والمال والولد فتأدب أيها الاخ بهذه المعاملة مع اخوانك الفقراء لتصير لك معراجا تتوصل بها الى معاملة رب السماء فتكون مقبولا عند الخلق والخالق وتصفو لك المعاملة وتشرق عليك أنوار الحقائق كما قال رضى الله عنه

(وان بدا منك عيب فاعترف وأقم * وجه اعتذارك عما فيك منك جرا)

(وقل عبيدكم أولى بصفحكم * فسامحوا وخذوا بالرفق يا فقرا)

(هم بالتفضل أولى وهو شيمتهم * فلا تخف دركا منهم ولا ضررا)

أى ليكن شأنك دائما التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار سواء وقع منك ذنب أو لم يقع وان بدا منك عيب أو ذنب فاعترف واستغفر فان التأديب من الذنب كمن لا ذنب له وليس الشأن ان لا تذنب انما الشأن ان لا تصر على الذنب كما ورد أنين المذنبين أفضل عند الله من زجل المسبحين لما فى أنين المذنبين من الذلة والانكسار وربما خالط زجل المسبحين شىء من العجب والافتخار ولذلك قال فى الحكم ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وقضى عليك بالذنب وكان سببا للوصول رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا ومع اعترافك واستغفارك أقم وجه اعتذارك عما جرى منك فيكون ذلك أمحى للذنب وادخل فى القبول وذل وتواضع وانكسر وقل عبيدكم أولى بصفحكم لان العبد ليس له الا باب مولاه وما أحسن ما قيل

ألقيت في بابكم عناني * ولا ابالي بما عناني
فزال قبضي وزاد بسطي * وانقلب الخوف بالاماني
فسامحوا عبيدكم يافقرا * وخذوا بالرفق وعاملوني

فاني عبد فقير ضعيف لا يصلحني الا المعاملة بالرفق والفضل ولا اعتمادي الا على الفضل لا بحولي وقوتي مذهب العجز والسلام ثم قال رضي الله تعالى عنه انهم أولى بهذه الشيم وهي شيمتهم ولم يزالوا متفضلين وهكذا معاملتهم مع أصحابهم وهي سجيتهم وكيف لا تكون لهم سجية وهم متخلقون باخلاق مولاهم كما ورد تخلقوا باخلاق الله فلا تخف منهم ضررا أيها السائل المصاحب لهم وتمسك بأذيالهم فانهم القوم لا يشقى بهم جليسهم فاذا عرفت ذلك أيها الاخ السالك فتخلقت باخلاقهم الكريمة وجد بالتعفي على الاخوان وغض الطرف عن عثراتهم تكن آخذا من أوصافهم أحسن شيمة كما قال رضي الله تعالى عنه

﴿و بالتفي على الاخوان جد أبدا * حسا ومعنى وغض الطرف ان عثرا﴾

اي وتكرم على اخوانك ايها السالك وجد عليهم دائما في الحس فببذل الاموال وأما في المعنى فبوهبة الاحوال ولا تبخل عليهم بشيء مما يمكنك ايصاله اليهم فان السماحة لب الطريق ومن تخلق بها فقد أزال عن قلبه كل تعويق قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ماوصلت الى الله تعالى بقيام ليل ولا صيام نهار ولا دراسة علم ولكن وصلت الى الله تعالى بالكرم والتواضع وسلامة الصدر فدل كلام الشيخ رضي الله تعالى عنه ان الكرم هو الاساس وان التواضع به يتم للسالك الغراس اذا تم له هذان الامران سلم صدره من العلائق وزال عن طريقه كل عائق ولذلك ورد في الحديث ان في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها او باطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام فتأمل يا أخي هذا الحديث حيث بدأ صلى الله عليه وسلم فيه بالانة الكلام وهو اشارة الى التواضع ثم ثنى باطعام الطعام وهو اشارة الى الكرم ثم أتى بعد ذلك بالصلاة والصيام يدل على ما أشار اليه الشيخ عبد القادر فانهض يا أخي الى هذه المكارم و بادر واجمع معهما حسن مكارم الاخلاق وغض الطرف عن

مساوى الاخوان أى وان وقعت منهم عثرة ولا تشهد الامحاسنهم كما قال الشيخ رضى الله عنه فى حكمه الفتوة رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساويهم وذلك ينشأ من كمال التوحيد كما قيل

اذا ما رأيت الله فى الكل فاعلا * رأيت جميع الكائنات ملاحا

فاذا تخلقت أيها الاخ بهذه الاخلاق الشريفة فقد تأهلت للاقبال على الشيخ فانهض الى عتبة بابه وراقب أحواله بهمة منيفة كما أشار الى ذلك الشيخ رضى الله تعالى عنه حيث قال

وراقب الشيخ فى أحواله فعسى * يرى عليك من استحسانه اثرا

أى فاذا تخلقت بما تقدم من الآداب ووصلت بافتقارك وانكسارك الى الشيخ وتمسكت بثرى تلك الاعتاب فراقب أحواله واجتهد فى حصول مراضيه وانكسر واخضع له فى كل حين فانك ترى الترياق والشفاء فيه فان قلوب المشايخ ترياق الطريق ومن سعد بذلك تم له المطلوب وتخلص من كل تعويق فاجتهد أيها الاخ فى تشييد هذا المعنى فعسى يرى عليك من استحسانه لحالك أثرا ومعنى قال بعضهم من أشد الحرمات أن تجتمع بأولياء الله تعالى ولا ترزق القبول منهم وماذلك الالسوء الآداب والافلا بخل من جانبهم ولا نقص من جهتهم كما قال فى الحكم ليس الشأن أن ترزق الطلب انما الشأن أن ترزق حسن الأدب * زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد رضى الله تعالى عنه فقال هاهنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد فاشير الى شخص كبير فى السن كان حاضرا هنالك فقال له السلطان هل سمعت شيأ من كلامه فقال نعم قال من رآنى لا تحرقه النار فاستغرب السلطان ذلك الكلام فقال كيف يقول أبو يزيد ذلك وهذا أبو جهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم وهو تحرقه النار فقال ذلك الشيخ للسلطان ان أبا جهل لم يرى رسول الله وانما رأى يتيم أبى طالب ولو رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تحرقه النار ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه أنه لم يره بالتعظيم والاكرام واعتقاد أنه رسول الله ولو رآه بهذه العين لم تحرقه النار ولكنه رآه بالاحتقار واعتقاد أنه يتيم أبى طالب فلم تنفعه تلك الرؤيا وأنت يا أخى لو اجتمعت بقطب الوقت ولم تتأدب معه لم تنفعك تلك الرؤية بل كانت مضرتها أعظم

عليك من منفعتها فاذا فهمت ذلك أيها السالك فتأدب بين يدى الشيخ واجتهد أن تسلك
لحسن المسالك وخذ ما عرفت بجد واجتهاد وانهض فى خدمته واخلص فى ذلك تسد مع
من ساد كما قال رضى الله تعالى عنه

﴿وقدم الجد واتهض عند خدمته * عساه يرضى وحاذر ان تكن ضجرا﴾
﴿ففى رضاه رضا الباری وطاعته * يرضى عليك وكن من تركها حذرا﴾

أى انهض فى خدمة الشيخ بالجد والاجتهاد فعساك تحوز رضاه فتسود مع من ساد
واحذر ان تضجر فى الضجر الفساد ولازم أعتاب بابه فى الصباح والمسا تحو زمنه
الوداد وما أحسن ما قيل

أصبر على مضض الادلاج بالسحر * وللغدو على الطاعات فى البكر
انى وجدت وفى الايام تجربة * للصبر عاقبة محمودة الاثر
وقل من جد فى أمر يؤمله * واستصحب الصبر الا فاز بالظفر

فاذا ظفرت أيها السالك برضاه رضى الله تعالى عنك ونلت فوق ما تتمناه فاستقم أيها
الاخ فى رضا شيخك وطاعته تظفر بطاعة مولاك ورضاه وتحوز الجزيل من كرامته
فعض يا أخى بالنواجذ على خدمة الشيخ ان ظفرت بالوصول اليه واعلم ان السعادة
قد شملتك من جميع جهاتك ان عرفك الله تعالى وأطلعك عليه فان الظفر لاسيما فى
هذه الايام أعز من الكبريت الاحمر فان طريق القوم دارسة وحال من يدعها كما
ترى لكن اذا ساعدتك العناية وظفرت به شممت من نفحة طيبة ما يفوق المسك
الاذفر ولذلك قال

﴿واعلم بان طريق القوم دارسة * وحال من يدعيها اليوم كيف ترا﴾
﴿متى أراهم وانى لى برؤيتهم * أو تسمع الاذن منى عنهم خبرا﴾
﴿من لى وانى لمثلى ان يزاحمهم * على موارد لم ألف بها كدرا﴾
﴿أحبهم وأداريهم وأوثرهم * بمهجتى وخصوصا منهم نفرا﴾

شرع الشيخ رضى الله تعالى عنه يشوق السالكين الى الطريق وأهله ويخبرهم ان
طريقهم دارسة وحال من يدعيها اليوم كما ترى من الفترة حتى كادت الهمم تكون
من المطلب آيسة وهكذا شأن طريق القوم لعزتها كأنها فى كل عصر مفقودة ولا يظفر

بها الا الفرد بعد الفرد وهذا سنة معهودة وذلك ان الجوهر النفيس لا يزال عزيز
الوجود يكاد لعزته يحكم بانه ليس بموجود فالطريقة وأهلها مخفية فى العالم كخفاء
ليلة القدر فى شهر رمضان وكخفاء ساعة الجمعة فى يومها حتى يجتهد الطالب فى طلبه
بقدر الامكان لكن من جد وجد ومن قرع بابا ولج ولج قال ابن عطاء الله رضى الله
تعالى عنه بعد ان ذكر لا بد من الشيخ فى الطريق على سبيل السؤال والجواب كيف
تأمر بذلك وقد قيل ان وجود الشيخ كالكبريت الاحمر او كالعنقاء فمن ذا الذى
بوجودها يظفر فكيف تأمرنى بتحصيل من هذا شانه فقال لو صدقت فى الطلب
وكنت فى طلبه كالطفل فى طلب مرضعته أو كالظمآن فى طلب الماء لظفرت بالشيخ
فان الطفل والظمآن لا يقر بهم قرار ولا تسكن روعتهم حتى يظفروا بمقصودهم فاشار
رضى الله تعالى عنه أن الشيخ موجود وكيف لا يكون موجودا وعمارة العالم انما هى
بامثاله فان العالم شبح والاولياء روحه فادام العالم موجودا لا بد من وجودهم ولكن
لشدة خفائهم وعدم ظهورهم حكم بفقدانهم فاجتهد أيها الاخ واصدق فى الطلب
تجد المطلوب واستعن على ذلك الطلب بالمدد من علام الغيوب فان هذا الظفر لا يحصل
الا بمجرد فضله واذا أوصلك الى الشيخ فقد أوصلك اليه كما قال فى الحكم سبحان من لم
يجعل الدليل على أوليائه الا من حيث الدليل عليه فلم يوصل اليهم الا من أراد ان
يوصله اليه ثم ان الشيخ رضى الله تعالى عنه لما ذكر عزة الطريق وفقدان أهلها شرع
يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه ويستبعد من نفسه حصول ذلك والتشرف بلقياه
تواضعا منه وانكسارا وهضما للنفس واحتقارا ولذلك قال بعد ذلك

من لى وانى لمثلى أن يزاحمهم * على موارد لم ألف بها كدرا

وهكذا شأن العارف بنفسه المتحلى من معرفة ربه المتجلى بواردة تقدسه لانه لا يرى
لنفسه حالا ولا مقاما بل يرى نفسه أقل من كل شئ وهذا هو النظر التام كما قيل شعر

اذا زاد علم المرء زاد تواضعا * وان زاد جهل المرء زاد ترفعا

وفى الغصن من حمل الثمار مثاله * وان يعر من حمل الثمار تمنعا

فانظر يا أخى الى الشيخ أبى مدين ورفعته الى الطريق كما قيل انه وصل من تحت تربيته
اثنى عشر ألف مريد وانظر الى هذا التنزل منه والتدلى بأغصان شجرة معرفته الى

أرض الخضوع والانكسار حتى انه لم يرى نفسه أهلا للاجتماع بأهل الطريق ولا يزيده هذا الانخفاض الا الارتفاع كما ان الشجرة لا يزيدها انخفاضها في عروقها الا ارتفاعا في رأسها فتواضع أيها الاخ في الطريق وخذ هذا الاصل العظيم من هذا العارف المتمكن يزل عنك كل تعويق ثم قال رضي الله تعالى عنه بعد ذلك أحبهم الى آخره أي اني وان لم أكن منهم فاني أحبهم ومن أحب قوما فهو منهم كما ورد في الحديث المرء مع من أحب وكما قيل

أحب الصالحين ولست منهم * لعلي ان أنال بهم شفاعه
وأكره من بضاعته المعاصي * ولو كنا سواء في البضاعه

وهذا أيضا رضي الله تعالى عنه من تمام التنزل السابق وتكميلا وتتميما لهذا التواضع الذي لم يلحق جواد شرفه في ميدانه لاحق نفعنا الله تعالى ببركاته ووفقنا لشيء من معاملاته لان هذه خصال القوم وصفاتهم ولذلك ارتفعت رتبتهم وجزلت عطياتهم كما وصفهم رضي الله تعالى عنه

﴿قوم كرام السجايا حيث ما جلسوا * يبقى المكان على آثارهم عطرا﴾
﴿يهدي التصوف من أخلاقهم ظرفا * حسن التألف منهم راقني نظرا﴾
﴿هم أهل ودي وأحبابي الذين هم * ممن يجر ذيول العز مفتخرا﴾
﴿لا زال شملي بهم في الله مجتمعا * وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا﴾
﴿ثم الصلاة على المختار سيدنا * محمد خير من أوفى ومن نذرا﴾

أي هم قوم سجايا كريمة وهممهم عظيمة حيث ما جلسوا تبقى آثار نفحات عطرهم في المكان ظاهرة وأينما توجهوا تسطع شمس معارفهم فتشرق في القلوب وتنصلح بهم الدنيا والآخرة يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم ظرفا مجيدة فتدله على الطريق وتسيره في سلوكه سيرة مجيدة فلذلك جمعوا حسن التألف حتى راق كل ناظر وحوى كل معنى لطيف حتى اكتحلت بكمال أنوارهم أنوار البصائر ولذا قال الشيخ رضي الله تعالى عنه بعد ذلك هم أهل ودي واحبابي الخ فان الشخص لا يحب الا من جانسه ولا يود الا من كان بينه وبينه مؤانسة وفي هذا الكلام اشارة الى انه رضي الله تعالى عنه من جملتهم وطيبه من طيبهم وما تقدم عنه من التواضع والانكسار هو دليل

على التحقيق بهذا المجد والفخار كما تقدم من الاشارات الى ذلك فنسأل الله تعالى ان يسلك بنا أحسن هذه المسالك ثم انه دعى وسأل أنه لا يزال شمله مجتمعا بهم في الله تعالى وذنبه مغفورا ومغتفرا ونحن نسأله تعالى أيضا اياه ثم الصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار خير من أوفى ومن نذر ومن أكرم الجار وعلى آله وأصحابه الابرار والتابعين وتابعيهم باحسان الى يوم القرار وهذا آخر عجالة الوقت لمن تعطش من معانى هذه الابيات والافنحن معترفون بالعجز والتقصير عن حقائقها وانما الاعمال بالنيات

بعون الله الملك الديان الذى أنزل على لسان نبيه الفرقان صلى الله عليه وعلى آله الكرام وأصحابه والأولياء الذين نالوا ببركته أرفع مقام قد تم طبع هذين الرسالتين بشرحيهما على أحسن نظام وكان طبعهما الفائق وتمام وضعهما الرائق بالمطبعة العامرة العثمانيه التى محل ادارتها فى مصر حارة الفراخة بخط باب الشعريه ادارة مديرها ومنشيها الهمام الفائق المتوكل على ربه الخالق الشيخ عثمان عبد الرازق فى أواسط شهر صفر الخير سنة ١٣٠٥ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم آمين